الصناعات في بلاد العرب

هي الصياغة والنجارة والحدادة والحياكة والقِصاب وإصلاح البنادق والبيطرة وبعض أنواع الطبَابَة: كالحجامة والفصد والكي وغير ذلك.

والصناعات على اختلافها معدود ة من المهن الخسيسة التي تحط بقدر صاحبها؛ ولذا فالذين يحترفون هذه الصناعات. إما من غير العرب أو من العرب الذين لاينتمون إلى أصول مشهورة أو غير قبيل. ومما يدل على احتقار الصناعات ألفاظ السباب المعروفة عند العرب (يا ابن الصانع) إذا أرادو تحقير إنسان وسبه بكلمة تكون مجمع السباب، وبهذه المناسبة نذكر أن الملك ابن السعود في مجمع كبير (وكان حانقاً عل آل عايض حكام أبْهَا السابقين لما تكرر من خيانتهم له) قال لأحدهم هذه الكلمة، فعندما انصرفوا وذهبوا إلى بيوتهم ابتدرته زوجته وقالت له : لا يمكن أن أعاشرك بعد الآن؛ لأنك من أبناء الصناع لا من أبناء القبائل وابن السعود لا يكذب، ولولا أن أفهمت فيما بعد أن ذلك كان عن بادرة غضب ما أمكن أن تقتنع بالرجوع إلى بيتها.

ولقد فتك عبد الكريم السعدون بعبد ا بك الصانع مدير الداخلية العراقية، لأن عبدا بك- وهو من ذرية الصناع- تجاسر على الزواج بابنة أحد أبناء السعدون الأشراف؛ ولق دعطف جلالة الملك عبدالعزيز على موقف عائلة السعدون، ولو استطاع لغيَّر موقف القضاء في هذا الموضوع الذي هَزَّ أحسن ناحية في جلالته.

وبهذه المناسبة أيضاً عند مذكراتي في الموضوع أخبرني المرحوم السيد رجب النقيب (نقيب أشراف البصرة) أنه في إحدى سياحاته إلى بغداد أوصى أحد أصدقائه بزن يتوسط له في الزواج بابنة أحد الأشراف، فكان ذلك الصديق يذكر

له سيدة من بنات الأشراف المشهورين ببغداد كبيت باشَجِي وجاد رِجِي وغيرهم، فكان السيد يمتنع من القبول ويقول : أريد الأشراف. وما كان صديق ليفطن لما يريده السيد، وأخيراً قال له صديقه: لقد عرضت عليك كل أشراف بغداد فمن تريد بعد ذلك؟ قال : أريد الأشراف، قال : لايوجد أشرف من هؤلاء هنا، قال: لا، أنت ذكرت لي أسماء الصناع وأنا أريد أصحاب الأنساب، قال : هَا! لو أخبرتني بذلك لأتيتك كل يوم بأسماء عشرين بدوياً من أقذر البدو، لقد اخترت لك أهل النظافة والمدنية واللطافة والكياسة، أنا لا أتوسط في هذا الموضوع، اذهب إلى السماوة أو غيرها من البادية واختر لنفسك ما تشاء. . . وإن من له اتصال ببلاد العرب يقف على كثير من القصص التي يمتنع فيها فقيرات البدو عن الزواج بأغنياء الحضر احتجاجاً بالنسب، فقد رفضت إحدى البدويات التزوج بابن المِشْترى حاكم الزُّبَيْر في أيام الأتراك لأنه من أبناء العبيد.

ولا تزال التجارة في البحرين من الحرف التي لا يصح اشتغال العربي الأصيل بها، ولذا كانت الأيدي غير العربية هي القابضة على زمام التجارة في البحرين. ومن الغريب أن العربي لا يزال يفضل رعاية الإبل والغنم والخدمة وراء الحمير على البيع والشراء والصناعة أو فتح متجر للبيع والشراء .

ومن الصناعات المشهورة والتي يحترفها كثير من البدو والحضر غواصة اللؤلؤ، وغواصة اللؤلؤ لها نظام خاص في غاية الغرابة: ليس هناك أجور معينة للعمل، ولكن العمال يشاركون صاحب السفينة فيما يحصل، فالذي يغوص له سهمان، والذي يخرج الغواص - وهو ما يسمونه سيبا - له سهم، وذلك بعد ما يخرجون خمس لحاصل للسفينة وثمن المأكل والمشرب، ولا يمكن أن يقبل أي عامل أجراً معيناً لأنه يريد أن يجرب حظه مع صاحب السفينة، إن كان قليلاً فقليل، وإن كان كثيراً فكثير. وصناعة الغوص من الصناعات الشاقة، وهي

تجري حسب الطرق القديمة ولاس تستخدم الآلات الحديثة، ولا يقل عدد من يشتغل بهذه الصناعة عن مائتي ألف عامل من العرب والإيرانيين لمدة خمسة أشهر. وموسم اللؤلؤ من أحسن المواسم وأجملها؛ وفيه تنشط الحركة التتجارية، ولذا لايمكن أن يتصور مقدار ضيق أهل هذه الصناعة في الأزمات الحالية لأن أكثرهم فقراء وليس لهم نقابات وشركات تعاونية مثل ماهو في جميع البلاد المتمدنة.

والطريقة المتبعة الآن في غواصة اللؤلؤ هي طريقة الحجر: يربط حجر كبير بطرف الحبل، فإذا أراد الغائص أن ينزل إلى الماء تمسك بالحجر ونزل إلى قاع البحر بكل سرعة، وإذا ضاق نفسه هَزَّ الحبل بيده ثم صعد بمساعدة رفيقه الآخر الموجود بأعلى السفينة والمنيقظ لكل حركة يأتيها الغائص. ولاغوص يشبه- من جميع الوجوه - بالمرعى، فنجد في جهة مائات للسفن، بينما ترى بعض الجهات الأخرى ليس فيها سفينة واحدة؛ وصاحب السفينة ينتقل من جهة إلى جهة وراء المحار واللؤلؤ، وهنالك في البحر تجد التجار الذين يدعون «بالطواويش» ينتقلون من سفينة إلى سفينة لشراء ما يستحصل من اللؤلؤ.

ولقد اكتشف البترول في السنوات الأخيرة في أكثر بقاع الجزيرة العربية فكان مصدر خير وبركة على البلاد زادت به موارد الثروة العامة ومكنت البلاد من الأخذ بنصيبها من نواحي الإصلاح المختلفة أسست المدارس الابتدائية والثانوية وأرسل الطلبة النابهون إلى مصر وأوربا للتزود من مناهل العلم كما أسست الإدارات الصحية وشيدت الطرق وبالجملة تطورت البلاد تطوراً سريعاً لم تكن تصل إليه لولا وجود هذا المعدن الثمين.